الفتح النورماندي

لحضرة المؤرخ المحامي جرجي افندي بك الطرابلسي

كان اول النازلين في البيون وهي انكلترا بضعة قبائل من المهاجرين الاسيويين وامة القلط واسمهم البريتون دفعتهم اليها القبائل الجرمانية التي وفدت على اوروبا بعدهم وزاحمتهم على مواطنهم فيها فظلوا يرحون في جاهليتهم حتى دهمهم الرومان قبيل التاريخ المسيحي فسادوا فيهم بعض الشيء وظلوا يحكمونهم نحواً من خمسمائة سنة الاّ انهم لم يقووا على اذلال بعض القبائل لاعتصامها في الجبال فلما رحل الرومان عادت تلك القبائل واهمها اثنتان الكوتس والبكتس يشنون الغارات على الثغور ليختموا منها ما زانتها به الحضارة الرومانية فلم يقوَ الاهلون على صدهم فاستعانوا عليهم ببعض القبائل الجرمانية التي كانت نازلة في اوروبا في القطر الواقع بين هانوفر واولدنبرج وهم الساكسون والانكلس والجوت فجاؤهم للنجدة ولكنهم بعد ظفرهم القليوا اخصاماً اذ نزلوا في الجزيرة وامتلكوها وازدادوا عدداً بكثرة الجالية اليهم من قبائلهم حتى صاروا بكرور الايام اصحاب البلاد وارومة ساكنيها . اعتبر ذلك بانتساب الانكليز الى الانكلوساكسون اما البلاد فدعيت باسمهم انكلند اي بر الانكلس وانزوى القلط في وايلس وايرلندا وهضاب اسكتلندا

وكان السكديناف قبائل من الارومة الجرمانية نازلين في بلاد الدانمرك والسويد ونروج يجدّون للعيش في بلادهم الباردة القاحلة فلا يجدون بلغة الا بشق الانفس فاكتسبوا النشاط والاقدام والمهارة في التجارة يتخذونها سبيلاً للنهب والسلب مدى زمن جاهليتهم فعملوا في اواخر القرن الثامن للمسيح بما احرزت غاليا من الثغى فاجتاحت قواربهم السوداء سواحلها الشمالية ومنها الى بريطانيا فشرعوا يأتونها في الاحايين فرصاناً لا يقصدون سوى اغتنام اصلابها لا يزجرهم عن ذلك دين ربهم ودن ولا يمنعهم شيء عن قتل الرجال واختطاف النساء والاولاد لان الانكلوساكسون كانوا يومئذٍ سبعة ممالك كل واحدة قائمة بذاتها والعدوان مستحل بينها فلا تقوى من جراء ذلك على صد العدو والسكنديناف في خلال ذلك يشنون الغارات تباعاً دراكاً على البلاد حتى امتلكوا ايرلندا وزحف جيش منهم سنة ٨٣٦ الى دورستشير فردهم اكبرت الذي توفق قبل ذلك للتفرد في الملك على ان يبقى بعض اصحاب الممالك الاخرى على حكوماتهم باسم نائب الملك. وتكررت الغارات في ايام خلفائه حتى انتصف

القرن التاسع وقد امتلك السكنديناف سواحل ايرلندا وشمالي غاليا واستفحل امرهم في البحر فاطبقوا على بريطانيا من كل جهة

وفي سنة ٨٦٦ زحف جيش منهم من ايرلندا على اسكتلندا ونزل جيش آخر تحت امر هوبا على سواحل ايست انكليا فاكتسحها وقصد يورك وما لبث ان استولى على نور ثمبريا وانضم الجيشان سنة ٨٦٨ ثم أمر نائب الملك في ايست انكليا وقتل وتوّج قائد الشماليين المسمى كثرم ملكاً وخضعت مارشيا للجزية وبالاجمال خرجت كل البلاد الواقعة الى شمالي التيمس من يد الانكلوساكسون وصارت في حكم السكنديناف واصبحت مملكة الوسكر التي كانت ذات السيادة على كل البلاد اذاء العدو الاكبر اذ عبر النهر الى بلادها سنة ٨٧١ واضطرمت الحرب فمات في غضون ذلك الملك اثلرد وخلفهُ اخوهُ الفرد فاشترى المصالحة بالمال وارتد السكنديناف الى ما وراء النهر ولكن بعد مضي ثلاث سنوات عادوا فطردوا نائب الملك من مارشيا وجعلوها تحت حكومتهم وهاجموا البلاد فوقعت الحرب بينهم وبين الفرد وكانت سجالاً حتى انكسروا في ودمور فعاقدهم الملك على صلح ظاهرهُ خروجهم من كل بريطانيا وحقيقة امره سلامة قطر وسكس فقط وظلّ القسم الاعظم من البلاد بايديهم مطلقين عليهِ اسم دانلاك مشتقاً من الدانماركيين لكن هذا الصلح لم يكن حاسماً للنزاع بل ظلّ الشماليون يقدمون من بلادهم فيلتئمون من الفرد ومن خلفائهِ من بعدهِ حروباً داميات

ولم تكن غارات النورمان على انكلترا فقط ولكنهم اغاروا على فرنسا ايضاً وبعد معارك يشيب لها الرضّع تغلّب قائدهم رولف سنة ٩١٢ على الملك شارل الساذج وعاقدهُ على التخلّي لهُ عن الثغور الشمالية فكانت هذه المعاهدة شبيهة بالانكليزية التي عقدت في ودمور فكن الحال وتنصّر رولف واتخذ ابنة الملك شارل لهُ امرأةً ثم اعترف بسيادة الملك عليهِ الاّ ان التنصر والاذعان لسيادة الاجنبي لم يكونا من خُلُق القوم . اما البلاد التي استحوذوا عليها فهي التي اتّسمت باسمهم نورمندي . وبعد وفاة رولف تولى الامارة (الدوكية) ابنهُ وليم وكان متمذبباً في المسيحية وطاعة ملك فرنسا لبقائهِ شمالياً لمّا اعتبر ذلكَ بما ورد من استقدامهِ شرذمةً من الدانماركيين ليسكنهم شبه جزيرة كوتنين الواقعة بين سان ميشيل وريف شاربورج وبما ورد من انهُ بعث بابنهِ الى بايو ليربى هناك على اخلاق قومهِ الباقية على الحالة الاولى بخلاف سائر الجماعة الذين خالطوا الفرنسويين واخذوا عنهم الدين والعادات واللغة وكان من نتيجة فعلتهِ ان نشأ ابنهُ الدوك ريشارد شمالياً بحتاً فعدل عن المسيحية حيناً من الدهر ذلك لما اشتد ساعدهُ بجماعة المهاجرين الحديثين الاّ ان ذلك لم يدم طويلاً لان قومهُ ما لبثوا ان دانوا

بالنصرانية واقتبسوا حضارة الفرنسيس واخلدوا الى محاسن الاخلاق وطالت امارة ريشارد من ٩٤٥ الى ٩٩٦ فرأى اثر هذا الانقلاب وشهد صدق ولاء قومهِ للاريكة الفرنسية

ولقد كانت هذه الامارة النورماندية قذىً في عيون ملوك الانكليز لقربها من بلادهم وخوفهم من اساءتها ولكن ما عتم ان رأى بعضهم ان يشد ازرهُ بهم فتزوج اثلرد باما بنت اميرهم فأحكمت عرى الصداقة السياسية بين البلدين حتى اذا اغار الدانماركيون على البلاد فرَّ الملك ملتجئاً الى بلاد نورمندي ومنذ يومئذٍ اتجهت عيون النورمان الى انكلترا يحسبونها مصدر الخير والثروة وتحركت فيهم تلك الاطماع القديمة وهي التي دفعت الدوك روبرت في عصر الملك كنوت ان يقصد تلك الديار بحجة رغبتهِ في ارجاع العرش للملك اثلرد لكن العاصفة اجلت الفتح الذي اضمرهُ اذ حطمت سفائنهُ وحالت دون مرامهِ . وخلف الدوك روبرت ابنهُ الدوك وليم وكان قوي الارادة شديد الحول يعلو بافكارهِ عن زمنهِ وبمقاصدهِ السامية عن معاصريهِ وفيهِ دهاء السياسيين ومهارة العارفين

الا ان نسبهُ من جهة امهِ لم يكن نبيلاً لان اباهُ الدوك روبرت كان قد رآها ابنة دبّاغٍ فعلق جمالها الفتان فاستولدها الدوك وليم فبقي نسبهُ هذا وصمةً يُعاب بها لولا ان سترها مجد اعمالهِ التي بدأها بكبت اعدائهِ في وطنهِ وجوارهِ حتى رسخ قدمهُ واستحصل امرهُ سنة ١٠٦٠ وعدَّ اولاً بين امراء فرنسا فاضاف مايان الى بلادهِ واخضع بريتانين ومال الى العلم فعضدهُ عضداً قوياً حتى ازهرت في ايامهِ مدرسة بك وازدادت نفعاً برئاسة لانفرنك اللمبارذي

اما في انكلترا فان الشماليين الذين غلبوا بعض الاقطار وسكنوها تيمّروا بين الاهلين فما لبثوا ان دانوا بالمسيحية وتخلقوا باخلاق مجاوريهم واتخذوا لغتهم وعوائدهم حتى كادوا لا يفرقون عنهم وزاد انضمامهم تمكناً بانقطاع المدد عنهم من الشمال لانشغال تلك البلاد بشؤونها الداخلية في زمن نشأة ممالكها الثلاث الا ان صيرورة الجميع امةً واحدة لم يخلد بهم الى السكون بل ظلت الحرب قائمة بين بعضهم ولكنها لم تبق كحروب الوطنيين للاجنبي عنهم بل كتنازع ابناء الامة الواحدة

ولا خفاء ان تلك الاونة كانت اشد الازمنة اضطراباً واكثرها تلقاً للملوك الاوربيين لما كان يعتور حكوماتهم من تخاصمة امراء القطائع الذين كانوا لا يفترون عن الاقتتال وقد كان يخطر لبعضهم التغلب على المملكة اما في انكلترا فقد كان اولئك الامراء على طارز اخوانهم من مناواة بعضهم بعضاً ولكنهم لم يكونوا يستطيعون الالمام بالشأن الملكي لمقامهِ في ذاتهِ وبين قومهم القائلين بامارتهم عليهم فبقي الشأن الملكي عند الانكليز محفوظاً ولكن القتال لم ينقطع بين

بعضهم والملك في خلال ذلك يحارب غير واحد من الامراء الشؤون اخرى ولكن لم يبقَ في النفوس اثر لاعتبار النورمان من اصل غريب فاصبحوا لا يحارَبون لهذا السبب

وفي خنام الجيل العاشر كان على العرش الانكليزي فتى من البيت الملكي اسمهُ اثلرد رأى حالة الامراء فاراد ان يخضد شوكتهم فاتخذ حولهُ بطانةً واعوانًا فما عتم ان اعتزَّ هؤلاء بنعم الملك واقطاعاته وزادوا طمعًا فلم يكن قيامهم مقلاً من الاحن بل مزيدًا فيها . وعلم الملك ان الدانمركيين على شك الاغارة على بلادهِ ولم يكن يستطيع صدهم لما في البلاد من الشقاق والبلايا ورأى عزة نورمندي لحسب ان الاقتراب من بيت امارتها يزيدهُ رسوخًا في عرشهِ ويدفع عنهُ طارئة العدو فتزوج باما بنت الدوك رو برت سنة ١٠٠٢ كما مرَّ فامتعض الانكليز منهُ وزادهم انقباضًا انهُ امر بقتل المستأجرة الشماليين لئلا ينضموا الى الدانمركيين حين اغاروا على انكلترا تحت امرة سويجن فادَّى ذلك الى ظهور عجزهِ عن صد العدو بالقوة فرشاهُ بمالٍ طائل حتى ارتدَّ ولكنهُ عاد سنة ١٠١٣ وعاث في البلاد فسادًا ففرَّ اثلرد الى نورمندي غير انهُ لم يقم فيها طويلاً لان المنية ادركت سويجن فمات سنة ١٠١٤ فاضطر ابنهُ كنوت ان يعود بقومهِ الى بلادهم وكان فتى باسلاً فلما بلغ الدانمارك جلس على الاريكة ثم باشر الاهبة لاغارةٍ شعواء على انكلترا . وسنة ١٠١٦ توفي اثلرد فخلفهُ ابنهُ ادمند وثارت على اثر جلوسهِ الشحناء فالقتال بين الامراء فجاء الدانمركيون واستولوا على وسكس ومارشيا فقاومهم ادمند بضعة اشهر حتى غلبوهُ في موقعة اساندون وعاقدوهُ على اقتسام البلاد فاصبحت انكلترا خاضعةً لملكين ادمند وكنوت وبعد حين توفي ادمند فخلا جو الملك لكنوت فبدأ حكومتهُ بالانتقام وسفك الدماء حتى انهُ لحق بابناء ادمند الى المجر ولكنهُ عاد الى الحكمة والرشاد فساس البلاد سياسةً مستحسنة وامنها وكانهُ لم يكن غريبًا اذ ابقى كل شيء على حالهِ بل صرف الدانمركيين الى بلادهم ولم يبقِ حولهُ منهم الاَّ نفرًا اتخذهم لحراستهِ

وفي ايامهِ كان بدء حادثين لهما الشأن الاعظم في تاريخ انكلترا احدهما اتفاقهُ مع ملك السكوتس على اعطائهِ شماليَّ نورثمبريا حتى نهر التويد وهي قطر يسكنهُ الساكسون والسكوتس على ما ذُكر من الغلط الاصليين ومن الغالة فلما انضم اليهم الساكسون امتزجوا بهم وغلب عليهم عنصرهم فصاروا والانكليز امةً واحدة لذلك سهل انضمامهم بعد ازمنةٍ الى اخوانهم بحيث اصبحوا لهذا العهد مملكةً واحدة . والحادث الثاني هو ان كنوت قرَّب اليهِ الإرل كودوين ومنحهُ السراوة والغنى واتخذهُ عونًا ونصيرًا فكان ذلك بدء عزتهِ . قيل ان اصل الرجل خامل بل وضيع جدًّا حتى انهم ليحسبونهُ ارتفع الى السراوة بعد اذ كان صبيًّا يرعى البقر فاصبح من

اوسع الامراء جاهاً واكثرهم اقتداراً وباتت كلمتهُ وهي النافذة في المملكة حتى ليحتاج اليها الملك في ترسيخ قدمهِ

وخلف كنوت ابناهُ هارولد فهارثانكوت ولم يسيرا على منهاج ابيهما من العدالة واللين فمل الانكليز حكومتهما حتى اذا مات هارثانكوت استدعوا ادوارد بن اثلرد من منفاهُ في نورمندي حيث نشأ على العادات والاخلاق النورمانية واجلسوهُ على اريكة آبائهِ والامر في خلال ذلك لثلاثة من اعاظم الامراء الاَّ ان اكثرهم نفوذاً واقتداراً الارل كودوين فكان مدبر شأن المملكة سيما لاقامتهِ ابنيهِ واحد انسبائهِ امراء على بعض القطائع فاشتد بهم ازرهُ وزاد اقتداراً بمصاهرة الملك فحدثتهُ نفسهُ بارتقاء الاريكة ولكن حال دون بلوغهِ اليها فسق احد بنيهِ وما جرَّ في اثرهِ من الخلاف مع الملك وفرار الابن من البلاد. ولو وقف الامر عند هذا الحدّ لهان ولكن كودوين نال من الملك نعمة العفو عن ابنهِ فلما عاد قتل ابن عمهِ وهو اميرٌ من صنائع ابيهِ فمال الرأي العام على كودين وابنهِ سيماحين اذ فاز بالصفح ثانيةً فاراد كودوين ان يصرف نفرة الامة عنهُ الى الملك فسعى بين الناس في بيان ارتياح ادورد الى النورمانديين وشؤونهم. وحدث في خلال ذلك وقوع النزاع بين صهر الملك صاحب بولون بفرنسا وبين اهل دوفر فادى ذلك الى الهرج فقتل بضعة من رجال الامير فالتجأ الى الملك يطلب قصاص الفاعلين فامر الملك كودوين ان يقتص من اهل دوفر لانها من امارتهِ فابى تحتجاً بوجوب المحاكمة فعدَّ الملك ذلك مخالفةً وامر بحضور كودوين لديهِ فابى فرماهُ بالعصيان وتحزكلاهما للقتال الاَّ ان نفرة الناس من كودوين وابنهِ مالت بهم عن نصرتهما فلما تفرقت جماعة الامير فرَّ بعائلتهِ واموالهِ الى فلاندر ثم علم ان الامة حسبت ذلك السقوط الوقتي قصاصاً كافياً وشعرت بالحاجة الماسة الى اقتدارهِ فجاء بالسفن سنة ١٠٥٢ فارجعهُ الملك الى سابق شأنهِ واقرَّهُ على امارتهِ ولكنهُ مات سريعاً وتولى الزعامة ابنهُ هارولد مدى اثنتي عشرة سنة وكانَ حكيماً باسلاً جمع كل فضائل ابيهِ ولكنهُ لم يتطلع بمقاصدهِ فازدادت عظمتهُ اضماناً واحبتهُ الامة كثيراً فاشتد املهُ بنيل الاريكة لاسيما بعد اذ عهد بامارة نورثمبريا لاخيهِ توستيك عقيب موت صاحبها الارل سوارد فاصبحت بذلك كل انكلترا الاَّ قسم صغير من قطر مارشيا في امارة آل كودوين وزاد في اعتلاء كعبهِ ضعف الملك وموت ولي عهدهِ ووشك انقطاع الاسرة المالكة بحيث كان ذلك جميعهُ ممهداً سبيل هارولد الى الاريكة

الاَّ ان العقبة الكؤود التي كانت تحول دون الوصول الى امنية هارولد لم تكن في انكلترا ولكنها في نورماندي بفرنسا لان الدوك وليم بن روبرت كان قد تولى الامارة وحدثتهُ نفسهُ

بالجلوس على الاريكة الانكليزية التي كان يقدر قرب موت ملكها بلا عقب. واذ كان الملك من انسبائهِ واصدقائهِ اغتنم فرصة خروج كودوين منها وأتى البلاط الملكي زائرًا صديقهُ وعاد منهُ على قول وقد وعدهُ الملك بولاية عهدهِ. وسنة ١٠٦٥ ركب هارولد البحر في مهمة لم يكشف التاريخ عنها تمامًا فعصفت الانواء وألقت بسفائنهِ حطامًا على الشاطئ الفرنسي ونجا بنفسهِ الى بونثيو فاسرهُ صاحبها لان من عادة تلك الايام ان يحسب الملتجئ الى بلدٍ اسيرًا فيها. وقد اختلفت الروايات في اتصالهِ بعد ذلك الى الدوك وليم فمن قائل انهُ اشتراهُ من الكونت الذي اسرهُ ومن ذاهب الى ان هارولد شكا الى الدوك وليم فأمر بهِ فأُحضر لديهِ الى روان فاحتفل الدوك بهِ كثيرًا واذ كان عارفًا بمكانتهِ وانهُ اذا ناظرهُ على الاريكة الانكليزية كان خصمًا عنيدًا عقد مجلسًا من ذويهِ ودعى بهارولد وشرع يخاطبهُ قائلاً اني لما كنت والملك ادورد كاخوين نسكن دارًا واحدة وعدني بولاية العهد على انكلترا اذا صار ملكًا عليها فارغب اليك الآن ان تمدَّ لي يد المعونة لوفاء وعد الملك. واذ كان هارولد في قبضة الدوك وقد شعر ان الضيافة التي يتمتع بها ليست الاَّ اسارًا قد يؤدي بهِ الى الحتف اجاب الدوك الى ما اراد. فعاد وليم وسألهُ ان يصاهرهُ في ابنتهِ اديلا وان يبعث اليهِ باحدى شقيقاتهِ ليزوجها باحد امراء (بارونات) النورمانديين فاذعن هارولد لذلك ايضًا. الاَّ ان وليم كان ادهى من ان يستوثق بمثل هذه الوعود المجرَّدة فاوعز الى هارولد ان يقدّم لهُ في حضرة سراة النورمانديين واجب الطاعة والاحترام اللائقين بولي عهد ملكهِ. فركع هارولد امام الدوك وليم ووضع كلتا يديهِ بين يدي الدوك وكرر الطاعة والوعد بالمعونة. وكان وليم عارفًا بما للشعائر المذهبية من الشأن العظيم في افكار الناس جميعًا حتى ان من اقسم على شيء من تلك الشعائر يلتزم بهِ ومن حنث تقزز القوم عنهُ ورموهُ بالمروق من الدين ولهذا جمع الدوك ما وصلت اليهِ يدهُ من الذخائر المحترمة كعظام القديسين وسواها في صندوق مقفل ووضع على الصندوق كتاب الصلاة وعقد مجلسًا آخر طلب فيهِ الى هارولد ان يقسم الايمان على ذلك الكتاب فاقسم يمين الطاعة والمعونة وهو لا يعلم بما في الصندوق حتى انتهى من قسمهِ ورأى بام عينهِ تلك الذخائر المحترمة فامتقع لونهُ لما في نفسهِ من الحنث بيمينهِ. وأفرج عن هارولد فعاد الى انكلترا وشرع يزداد كمالاً في عيون مواطنيهِ بسالتهِ وحكمتهِ وعدالتهِ حتى اذا قضى الملك ادورد نحبهُ في ٥ كانون الثاني سنة ١٠٦٦ اجتمع اهل الحل والعقد وانتخبوا هارولد ملكًا فرقم ذلك من الاهلين موقعًا جليلاً لتعظيمهم قدرهُ. وما بلغت الاخبار الى نورماندي حتى قام وليم امرها وقعد وبعث بالحال رسولاً يذكر هارولد بيمينهِ التي حلفها على الذخائر المقدسة فاجاب الملك قائلاً نعم اني حلفت

له ولكني اقسمت مرغماً ووعدت بما لا بد لي في اعطائه لان قيامي على الاريكة ليس مما الملك ولذلك لا استطيع التخلي عن الملك الاَّ برضا الامة وليس الاَّ برضاها اقتدر على التزوج بابنة غريبة واما شقيقتي التي يريد وليم مني ان ارسلها اليه ليتزوجها من احد رجاله فقد ماتت في مدى هذه السنة فهل يرغب اليَّ ان ابعث له ببعثتها

فلم يقنع الدوك وليم بهذا الجواب بل بعث الرسل ثانيةً فعادوا بمثل جوابهم الاول فنشر وليم بين الناس رسالةً ابان بها حنث هارولد بيمينه وعدم برهِ بوعدهِ وتوعَّد ان يجرد السيف عليه ليأخذ منهُ بحقهِ . قيل ان الدوك وليم لم يدَّعِ الملك افتئاتاً انما رغب في ان يسأل فيه رأي الامة وحسب هارولد حائلاً بتلكهِ بينهُ وبين بيان رأيها ثم ارتأى ان يسعى بالوسائل السلمية لنيل رغبتهِ قبل ان يجاهر بالعدوان لا خوفاً منهُ ولكن لسياسةٍ نحاها اراد بها ان يمكّن لنفسهِ بين الحلفاء والانصار ليصدقوا في نجدتهِ متى علموا ان دعواهُ نائلةٌ الحظوة لدى الكرسي الرسولي في رومية . والناس في ذلك العهد على تمام الولاء والاذعان لاحكامهِ فاستدعى ان يكون قداسة البابا حكماً بينهُ وبين هارولد فابى الملك هارولد الاجابة الى ذلك بحجة انكارهِ المجلس الذي يُعقد لهذه الغاية وان لا صلاحية للحبر الايطالي ان يحكم في دعوى الملك الانكليزي فساء وقع هذا الجواب كثيراً ولكنهُ لم يقف في سبيل فحص الدعوى والحكم للدوك وليم بالاريكة الانكليزية وتعزز الحكم بارسال البابا للدوك راية صلى عليها وباركها فلما اتصل ذلك بعلم الاكليروس شرعوا يؤيدون دعوى الدوك ويحضون القوم في طول اوروبا وعرضها على الانضواء تحت اعلامهِ فكانت دعوتهم كنفير عام ضد انكلترا . اما الدوك وليم فشرع يعمل بملء قدرتهِ ومنتهى رهائهِ ليس فقط لجمع رجال دولتهِ بل لاستنهاض حلفائهِ وتباعهِ ومريديهِ يتبعي هذا بالغنائم وذاك بالمناصب حتى اجتمع لديهِ جيش لم يرَ الغرب احسن منهُ عدداً وعدداً اذ انضمَّ اليهِ كل ذي حمية وبسالةٍ من الاوربيين الطامحين لنيل البركة واغتنام ما يملك الانكليز وفوق هذا فان النورمانديين كانوا من الابطال المشهورين وناهيك بالدوك فهو يعدّ بالالوف

ولا خفاء ان الاغارة على بلاد الأنكليز لا تستطاع الا لمن يتملك اسطولاً قوياً وقد اتجهت عناية وليم لهذه الغاية ايضاً وقضى الشهور الطوال من سنة ١٠٦٦ وهو يجهز السفن الجمة في الثغور الخاضعة لهُ

اما الانكليز فانهم كانوا يرون تلك الاهبة ويقابلونها بالمثل برّاً وبحراً الا ان المصايب تتوالى فان مرابطة ثغور انكلترا الجنوبية زمناً طويلاً اقلق الكثيرين من جيش هارولد ومعظمهم

من اهل الحرانة والصناعة فشرعوا يتركونهُ زرافات حتى لم يبقَ لديهِ سوى اواخر الصيف من سنة ١٠٦٦ الاَّ الجيش المدرَّب. يومئذٍ اتصل بعلمهِ ان ملك نروج هارالد هاردرادا قد اغار على بلادهِ بخمسمائة بارجة ونزل قطر اورکنيس فانضم اليهِ كثيرون من الاهلين فزحف الى يوركشير وهنالك حارب بعض الامراء عند يورك فغلبهم واستولى على المدينة وجوارها

وكان السبب في هذه الغارة ان هارالد هاردرادا كان ثالث الطالبين الاريكة الانكليزية وقد زادهُ استرسالاً اليها تحريض الاول توستيك بن كودوين شقيق الملك هارولد اذ لحق بهِ مغاضباً وذلك لان اخاهُ هارولد كان قد اناله في زمن الملك ادورد الامارة على نورثمبريا كما مرَّ بنا فلم يجد منهُ بعد ذلك اخلاص الاخ بل اوجس منهُ خيفة على الاريكة ان يناظرهُ فيها حتى اذا وقع الهرج في تلك الامارة فرَّ توستيك منها الى فلاندر واقام ثمة يرقب الاحوال فعلم ان اخاهُ اعطى امارتهُ لموركر من آل ليوفريك شقيق صاحب مارشيا فاصبح كلاهما من اعوانهِ وما عتم ان افضت الاريكة اليهِ فالحق توستيك بهارالد هاردرادا وشرع يزين لهُ الاغارة على بلادهِ وقومهِ حتى نهض وعبى الجيش وجهز السفن كما مرَّ

فلما علم الملك هارولد بالغزاة انزاح عن مرابطة الثغور الجنوبية واخذ السير الى يوركشير فبلغها في اربعة ايام . وباغت الاعداء عند مستامفورد بردج واصلاهم حرباً عواناً فلقي منهم كفاحاً عنيفاً وكاد لا يقوى على القاء الوهن في صفوفهم لتألبهم على بعضهم فاظهر الانكسار خدعةً واحتيالاً حتى اذا تفرقوا لملاحقتهِ كرَّ عليهم ابطالهُ واثخنوا فيهم قتلاً وجرحاً فنالوا الظفر بعد ان قتلوا الملك هرالد هاردرادا

ومسرَّ الملك هارولد بظفرهِ ولكن اشتراهُ بدماء نخبةٍ من شجعان رجالهِ الاَّ ان مسرورهُ لم يكن طويل الامد لان الدوك وليم كان قد نزل البر غير معارض ذلك لانهُ كان منذ اواسط شهر اغسطس قد حشد السفن عند مصب نهر صغير بين السين والاورم اسمهُ نهر ريف وساق الى الجوار خمسين الفاً من الابطال وعشرة آلاف من الجند وليث ينتظر الفرص لركوب البحر بهذا الجيش الكثيف وما يحتاجهُ من الكراع والمتاع الاَّ ان الرياح كانت مضادةً فجعل الدوك يسدِّد تنظيم جيشهِ وينظر في مهماتهِ تأهباً للعمل العظيم وهو يرقب الريح حتى قرب زمن الاعتدال الخريفي واصبح الهبوب من الشمال الشرقي متجهاً صوب الغرب فركب الغزاة البحر وما اقلعت بهم السفن حتى تغير مهب الريح وعصفت الغربية بنوئها فارتدَّت السفن الى السواحل الافرنسية بعد ان تحطَّم بعضها وغرق بعض فادى ذلك الى تذمر النورمانديين وسائهم من الحرب حاسبين ان العناصر تذود عن الانكليز وما دروا ان العاصفة كانت من انصارهم لانها

ساقت النروجيين الى انكلترا واشغلت هارولد بهم عن مرابطة الثغور فابتسمت لهم حين اقتربوا منها وناغيك ان العمارة التي اتخذها الملك هارولد من قوارب الصيادين وسفن النقل وملأها بالرجال والسلاح وجعلها على حفارة السواحل شُغلت ايضاً بعد مواقعة النروجيين بحشد المؤونة والذخيرة لابناء جلدتهم الذين انفقوا ما اذدخروهُ من ذلك في لقاء الاعداء. اما الدوك وليم فلم تكد تلك العثرة لتفعل شيئاً في عزيمته بل شرع يحمّس القوم و يستنهض هممهم حتى عادت الريح فهبّت جنوباً فنشر شراع سفنه وثغر البحر الى انكلترا فلم يجد في البلوغ اليها معارضةً فوطىء البر في خليج من ولاية سوساكس بين باتساي وهاستنس وذلك في ٢٩ ايلول سنة ١٠٦٦

وكان الملك هارولد يقيم الافراح في مدينة يورك لظفره بالنروجيين فجاءهُ الخبر بنزول عدوهِ الى البر فزحف للحال للقائهِ ولما بلغ لندن اقام بها ستة ايام اصدر خلالها الاوامر بحشد الجنود وتجمع السفن على ضفاف سوساكس ثم اسرع الكرة غير مبالٍ بالجهد ولا مكترثٍ بعديد العدو لانهُ قد سكر بخمرة الظفر والاّ فان لندن وغيرها من البلدان كنّ يعظمن قدرهُ و يطعن امرهُ ألا تراهنّ وقد اسرعن لتقديم بنيهنّ اليهِ فجمع منهم عسكراً وسار بهم مسرعاً ابتغاء مباغتة النورمان كما باغت النروجيين فلقي من حذر وليم ودهائهِ ما لم يكن في حسبانهِ

وكان من الدوك وليم عند نزولهِ الى البر ان عثرت رجلهُ فوقع على كلتا يديهِ فصاح بعض جماعتهِ ان تلك علامة الشؤم فاجابهم لساعتهِ بل ان ذلك فألٌ حسن فاني وعظمة الله لقد امتلكت انكلترا بكلتا يدي فهي الآن لي وما هو لي فهو لكم

وزحف النورمان على سيف البحر الى هاستنس واقاموا هنالك معسكراً حصيناً وكانوا قد اصطنعوا ثلاث قلاع من الخشب احكموا صنعها في بلادهم وجاءوا بها قطعاً لا تحتاج سوى تشييدها الاّ الى شدها بالمسامير فلما نزلوا البر نصبوا قلعةً منها وفي اليوم التالي نصبوا القلعتين الأُخريين عند هاستنس وشرع الذين يمتارون للجيش بالسلب والنهب لئلا ينفد ما جاءوا بهِ في سفنهم فثارَ الاهلون من مساكنهم ابتعاداً عنهم وخلت الديار للظافرين فانقذ الدوك وليم بعض الشراذم من الفرسان لارتياد البلاد فرأوا الجيش الانكليزي زاحفاً عليهم فنكصوا على الاعقاب حتى انتهوا الى قومهم يخبرونهم بمجيء الانكليز سراعاً اما هارولد فأسقط بيدهِ لانهُ لم يستطع ان يأخذ العدو على غرة فغيّر منهاج حربهِ بان نزل على سبعة اميال منهُ وبعث يدس الجواسيس في مصاف النورمان فعادوا اليهِ يخبرونهُ ان الجيش مملوء بالكهنة اكثر منهُ بالكماة ذلك لانهم رأوا ازياء النورمانديين شبيهةً بزي اهل الكهنوت فحسبوهم منهم الاّ ان هارولد كان عارفاً بحقيقة الحال فصرّح بها

وعرف هارولد ان الجيش النورماندي اوفر منهُ عدداً فلم يعبأ بهِ ولا عمل بنصيحة بعض رجالهِ الذين اشاروا عليهِ ان يرتدّ الى لندن ولا يبقى في طريقهِ اليها على شيء من الزاد والذخيرة فلا يمضي الزمن الطويل الاّ وقد احتاج النورمان الى تلك اللوازم فلا تقدر سفنهم على السفر الاضطرار من بلادهم لوقوف السفن الانكليزية لها بالمرصاد فيضطر الدوك ان يزحف بجيشهِ الى لندن طلباً للقوت فلا يجد على مدى طريقهِ الاّ جوعاً شديداً وامراضاً وبيلة تفني الامة الانكليزية في هلاك النورمان عن القتال . ولو عمل هارولد بهذه المشورة لنجت انكلترا من الفتح النورماندي ولكن هي عزة الملك وانفة البسالة رفعت بنفس هارولد عن الارتداد وهو الاشفاق ان يسلب قومهُ بيدهِ وان يشقي بلادهُ بامرهِ زين لهُ الموت في دفع الذلة على الحياة في ايصال الاذيّة لمن احبَّ

وكان في صحبة الملك اخواهُ كارث وليوفون فاشار عليهِ الاوّل ان يتغيب عن القتال لانهُ مثقل بحنث اليمين و يبقى هو واخوهُ في الجيش يحاربون دفاعاً عن الوطن فابى الملك ان يتخلى عن قومهِ في زمن المحنة وتحصّن في موقف منيع يدل اختيارهُ على معرفتهِ بالفنون الحربية معرفة القائد المحنك فان المهاجمين كانوا لا يقوون على المحاربين فيهِ اذا ازلوهم من الامام خيفة ان يؤخذوا من الجانبين وكان الى وراء الموقف غابة كثيفة يستطيع هارولد ان يجمع فيها شتات جيشهِ اذا وهن وشتَّ واقتدر العدو على اخذ مركزهِ المنيع اما النورمان فانهم لا يجبون من الرجال اذا اندحروا

ونصب هارولد اللواء الساكسوني في موضع ارتأى ان العدو يهاجمهُ منهُ ووقف بجانبهِ وحولهُ رجال كنت الذين كان يحق لهم ان يبدأوا القتال متى كان الملك معهم وكذلك رجال لندن ومن حقهم يومئذٍ ان يكونوا حراس الملك والراية . وما لبث ان ظهرت فيالق النورمان وبدأت في المهاجمة على النسق الذي تصورهُ هارولد الاّ ان وليم لم يباشر القتال فوراً بل بعث للملك راهباً اسمهُ هوك مايكرو يسألهُ واحدة من ثلاث اما ان يتخلى عن الملك لناظرهِ الدوك واما ان يذعن لتحكيم البابا او ان يبارز الدوك فابى الملك الاجابة الى شيء من ذلك لان تملكهُ كان باتفاق الامة فلا يسوغ لهُ التخلي عنها ولا تعليق امرها على حكم اجنبي او فصلها بالمبارزة بين اثنين. ولكن هذا الجواب لم يقطع الغدال اذ اعاد وليم الرسول يعرض على هارولد التسليم على ان يكون لهُ ملك ما وراء هامبر ولاخيهِ كارث امارة ايبهِ وامر الرسول قائلاً اذا اصرَّ على عنادهِ فقل لهُ على مسمع من ذويهِ انهُ حانث بيمينهِ وكاذب بوعدهِ ومحروم من الخير الاعظم فادّى الراهب رسالتهُ فارتاع عظماء الساكسون لدن سمعوا كلمة الحرم وتناظروا

فقال واحدٌ منهم لا تراعوا ايها الشجعان فاننا مندوبون للدفاع كيف كان الحال لان القضية ليست في اختيار الملك الواحد دون الآخر ولكنها ذود عن ديارنا وما ملكت ايماننا فاذا غلبنا الدوك على الملك فينا فهو مرتبط مع انصاره على ان يعطيهم كلما نملك من كثير وقليل فماذا يحل بنا اذا سبينا والى اين نذهب بعيالنا واولادنا فاصغى القوم لمقاله وتحالفوا على الدفاع حتى الرمق الاخير

فلما لم يجد الفريقان من الحرب بدًّا باتا على عزم القتال في الصباح التالي الا ان حالهما لم يكن واحدًا اذ ان الساكسون قضوا ليلتهم فرحين طربين يبوقون ويهتفون ثم يشربون الخمور غير واجسين خوفًا بخلاف النورمان فانهم بعد اذ القوا النظر على اسلحتهم وخيولهم قضوا السنة المذهبية بالاعتراف ومناولة الاسرار المقدسة ثم ناموا ملء جفونهم حتى صباح ١٤ اكتوبر (ت ١) فنهضوا وصلوا فروضهم وانضووا تحت اعلامهم اما الامراء منهم فانهم التفوا حول الدوك وليم فأمر ان يقسم الجيش الى ثلاثة فيالق تهاجم الاعداء في وقت واحد معًا ووقف ببطانته على رابية يشرف منها الموقع وخاطبهم قائلاً انهُ واثق بالنجاح لان جيشهُ شديد الحول وفيهِ الامراء الابطال المخلصون الذين سيكون لهم ما ينال من المغنم فهتفوا لهُ هتافًا شديدًا مؤكدين ان ليس بينهم جبان او رعديد وانهم موطنون النفوس على الموت في سبيلهِ فشكرهم واشار عليهم ان يبلوا في الاعداء بلاءً حسنًا والاَّ تلهبهم الاسلاب لانها لا بدَّ ان تكون لهم في آخر الامر فيقسمها بينهم على السواء ثم قال ايَّاكم والاستئثار او الهرب لان الانكليزي لا يحب النورمندي فلا يبقي عليهِ فلا تأخذكم الشفقة عليهم لانهم يفتكون بالجبان الهارب كفتكهم بالبطل المحارب والى اين المفرّ من القتال أالى البحر فانكم لا تجدون ثمة سفنًا تنقلكم او جسورًا تجتازون عليها الى بلادكم فيلحق الانكليز بكم ويقتلونكم وانتم مسربلون بالذلة والعار. واذ ان الفرار لا ينجيكم فليس لكم الاَّ القتال والصبر على اهوالهِ فتغلبون والظفر الذي جئنا في التماسهِ مكللاً بالمجد قريب المنال منا اذ اصدقنا في الضرب. وعلى هذا النسق كان يخاطبهم واذا بواحدٍ من عظمائهِ يقول لهُ لقد ابطأنا يا مولاي فهلمّ بنا فاسرعوا الى خيامهم وشكوا في سلاحهم وجاؤا الدوك بدرعهِ وصدرتهِ واذ لم يكن منتبهًا ليس الصدرة مقلوبةً فتأمّل بعض الحضور فقال لهم انهُ لا يتطير وانما يسلم الامر لله المتعال وهو تعالى لما يريد وانهُ بالاحرى يتفاءل خيرًا من ان الصدرة كانت منقلبةً فاصلح لبسها اشارةً الى انهُ سينال الاريكة الانكليزية ويصير ملكًا بعد اذ كان دوكًا

ثم دعا بالراية المباركة وسلمها لاحد ابطالهِ ثم عهد بالقيادة على احد الجانبين لدسيه

مونكومبري يعاونهُ وليم اوسبرن ومعهما فرقتاهما ورجال بوتون وبرا وعسكر النورمان وعهد لالين فرجر وامري بقيادة رجالها والبريتون الفرنسيين وكل فرق باروناث الماين لمهاجمة الجانب الاخر فبقي لقيادته بطال قومهِ واصدقاؤهُ وانسباؤهُ ليهاجم بهم القلب حيث يحتدم القتال شديداً

وكان الجيش مؤلفاً من الرجالة والفرسان اما سلاحهم فالسيف والرمح والنبال وسلاح الانكليز السيف والرمح والبلطات والنبوت والهراوة

ولما وقع المصاف تقدم مشاة النورمان اولاً ووراءهم الفرسان فرماة النبال وخاطب هارولد قومهُ محمساً ومحذراً من التفرق والشتات لان الصف اذا لم يبقَ محكماً عليهم العدو ولقد صدق الملك لانهم لو ظلوا على تجمعهم وراء السياج الذي اقاموهُ من الاشجار وعززوهُ بالمجان لما نال النورمان منهم وطراً

وامر هارولد رجال كنت ان يقفوا حيث ظنَّ النورمان يبدأون بالقتال ليكون لهم ان يضربوا الضربة الاولى وامر رجال لندن بحفارة العلم فلما خف القوم لاتمام اوامرهِ ترجل ووقف للقتال بجانب رايتهِ ووقف معهُ اخواهُ وسائر امرائهِ. وتقدم النورمان بقدم راسخة وكان بينهم منشد رخيم الصوت يغني بالاناشيد الحماسية حتى اقترب العسكران فدنا من الدوك وليم وسألهُ ان يأذن لهُ بابتداء القتال فلما اجاز تقدم وقتل رجلاً من الانكليز فقتلهُ غيرهُ فاحتدم القتال بين الجيشين وراجت سوق المنايا

وكان وراء موقف النورمان حفرة. ففي ذات مرة ارتدوا امام الانكليز فسقطوا في الحفرة وقتل منهم كثيرون ورأى حفظة المتاع ذلك فحسبوا جيشهم قد انكسر وكادوا يولون الادبار لو لم يأتهم اودو اسقف بايو اخو الدوك وليم يشجعهم ويؤكد لهم قرب الظفر وما زالت الحرب سجالاً من الساعة التاسعة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر وكان رماة النورمان يسددون سهامهم على الانكليز فلا تصيب منهم الاَّ الاتراس فامر الدوك ان يرشقوها صعداً فتنحدر على رؤوسهم ووجوههم فكان ما حسب اذ نزلت عليهم كأنها المطر الهتون واضرَّت بكثيرين في عيونهم واصاب نبل منها عين الملك هارولد فقلعها وألمهُ شديداً فمد الملك يدهُ وانتشل النبل من عينهِ وحطمهُ حنقاً ورماهُ بعيداً ثم اتكأ على تجنهِ متألماً

ورأى الدوك ثبات الانكليز فامر ان يتظاهر قومهُ بالتقهقر حتى يخرج الاعداء من محصنهم فيرتدون عليهم فلما كان ذلك برز الانكليز في اثر اعدائهم يضربون في اقفيتهم حتى بعدوا قليلاً عن محصنهم فكر النورمان عليهم وابلوا فيهم البلاء الحسن حتى ردوهم الى المحصن فلم يمنعهم عن الانكسار قليلاً فارتدوا الى موضع العلم واحاطوا بهِ ذوداً عنهُ وتبارى ابطال النورمان

في قصدهِ فما نالوا اربًا ولكن الدوك وليم كان متهيأ لهجومهِ بجميع عسكرهِ فلقيهُ احد ابطال الانكليز وضربهُ بالبلطة على رأسهِ فكاد يخمد انفاسهُ بل قتلهُ وقع قتيلاً فلحق النورمان بالانكليزي وقتلوهُ واما الدوك فلم يصب بسوء ولئن ذاع بين قومهِ انهُ قتل فكشف الخوذة عن رأسهِ وقال هوذا انا سليم ولا بدَّ من الظفر ثم لوى عنانهُ صوب العلم فقتل هنالك كارث اخا الملك وكان رجال كنت واساكس يبلون في القتال بلاء بديعاً فارتدَّ النورمانديون امامهم ولكنهم عادوا فتألبوا واندفع الدوك بهم الى موضع العلم الانكليزي وهنالك رأوا هارولد في جملة من يذود عنهُ غير مكترثٍ باقتلاع عينهِ فنازلوهُ وقتلوهُ واخذوا العلم بعد ان فتكوا بمن حولهُ ولكن ذلك لم يمنع سائر الانكليز من البقاء على القتال حتى ذاع خبر مقتل ملكهم واخذ الرابة فخاب رجاؤهم وولوا الادبار.

وسر وليم بما احرز من النصر فامر برفع رايتهِ موضع الراية الانكليزية ونصب سرادقهُ بقربها بين القتلى كانهُ اصبح لا يعبأ بانين الجرحى وحشرجة المحتضرين وامر بطعامهِ فأُعدَّ لهُ هنالك وأكل مريئًا وشرب هنيئًا بعد ان شكر الله على نعمتهِ واثنى الثناء المستطاب على انصارهِ مؤبنًا من مات منهم في سبيلهِ فاندفع القوم يمدحون بسالتهُ ويطرأون اعمالهُ وفي صباح اليوم التالي دفنوا قتلاهم وجاء نساء الجوار وبعض الكهنة وحملوا قتلاهم فدفنوهم في الاديار والكنائس.

ولقد زعم بعض الكتبة ان الجرح الذي اصاب هارولد كان سببًا في انكسار قومهِ لانهُ شغل بالهِ عن تدبير الوقعة والاَّ فلا يعقل ان الذي ينتصر قبل ايام بخدعة الهرب يؤخذ بمثلها في ذلك اليوم وانما الذنب في ذلك على ابطالهِ الذين جاهدوا احسن جهادٍ فلما تظاهر العدو بالقهقرى حسبوا تمار بسالتهم دانية القطوف فسارعوا الى جناها ولم يحسبوا للخدعة حسابًا. ولقد اثنى كتبة النورمان وشعراؤهم على بسالة هارولد وتدبيرهِ ويقال انهُ لو سلم غير واحدٍ من اخوتي هارولد او من امرائهِ لجمعوا شتات الانكليز بعد اندحارهم ووقفوا بهم موقفًا آخر اطال الحرب واضرَّ كثيرًا

اما الخسائر فكانت فادحة لان النورمان فقدوا في ذلك اليوم ربع جيشهم اي خمسة عشر الفًا ولا تعرف خسارة الانكليز

وكان هارولد قبل اختيارهِ ملكًا قد بنى ديرًا سماهُ دير ولثام فلما زحف للحرب اصطحب معهُ راهبين من رهبانهِ في صباح اليوم التالي جاء الراهبان يسألان الدوك وليم ان يأذن لهما بالبحث عن جثث الملك فاجاز لهما ذلك ولكنهما لم يعرفاهُ لان النورمان كانوا قد شوهوا كثيرين من القتلى فاستدعيا احدى النساء العارفات بهارولد فعرفتهُ وفي خلال ذلك طلبت امهُ

من الظافر ان يأذن لها بدفنه فاجابها وهو غاضب ان من كان حائناً لبيته ومارقاً من دينه لا يصح ان يُدفن الاَّ على رمال البحر وانهُ كان في حياته مرابطاً للثغور فليبقَ على حفارتها وهو ميت غير ان الحاج ام هارولد غلب على غيظ الدوك وتمنعه فاذن لها بدفنه فحُمل الى دير وثام ودُفن ثمة عزيزاً مكرماً

وامر وليم ببناء دير على اكمة سنلاك تذكاراً للظفر فبني الدير وسمي دير القتال وآثارهُ باقية الى اليوم

وبعد ان استراح الدوك اياماً زحف فاكتسح البلاد وخضد شوكة المعارضين وما هم بالشيء المهم لانهُ لم يكن قد بقي حيٌّ من اخوة الملك هارولد وكانت ارملة الملك ادورد سائدةً في ونشستر فلما دنا الظافر منها سلَّمت اليهِ الاَّ ان صبيا من البيت الملكي القديم اسمهُ ادكار اثلن اختارهُ الانكليز ملكاً عليهم وعضدهُ بعض الامراء وارادوا الامتناع بهِ في لندن ولكن لما دنا وليم منها وتوعدهم خافوا وفروا الى اوطانهم فسلمت لندن اليهِ اذ ارسلت اليهِ وفداً من عظمائها يتقدمهُ الملك الحدث فقبل الظافر التسليم وفي عيد الميلاد توَّج ملكاً على انكلترا في وستمنستر من يد رئيس الاساقفة الدرد . ومما يحكى ان احد الاساقفة الحاضرين سأل سراة النورمانديين الحاضرين باللغة الافرنسية عن ارتضائهم بتتويج الدوك وليم ملكاً فاجابوهُ بالايجاب ثم سأل غيرهُ بالانكليزية لعلماء الساكسون عن ارتضائهم بهِ فاجابوا موجبين ايضاً وهللوا لهُ تهليلاً عظيماً وكان في ظاهر الكنيسة شرذمة من ابطال النورمان فلما سمعوا التهليل لم يفقهوا لهُ معنى بل حسبوا تلك ضوضاء بعض المؤتمرين على سيدهم فحنقوا واندفعوا على الدور المجاورة يحرقونها فوقع الهرج والاضطراب وخرج كثيرون من الامراء والعظماء من الكنيسة لتسكين الثائرة فلم يبقَ في حفلة التتويج الاَّ الملك والاساقفة الخائفون

ومع تتويج وليم الفاتح ملكاً لم تكن كل انكلترا خاضعةً لامرهِ لان نورثمبرلند ابت الاذعان مع ان حكمهُ كان حسناً اذ اعاد الامن الى البلاد واجرى العدالة ولم يجنف الاَّ على بعض المشاغبين واراد ان يتعلم الانكليزية ليفهم نظلم رعيته فما نال منها ارباً. وفي سنة ١٠٦٧ ذهب الى نورماندي لينظر في شؤونها وعهد بالنيابة عنهُ لاخيهِ الاسقف اودو فجار كثيراً حتى استفز اهل كنت لشق عصا الطاعة فجاءهم الملك واخضعهم. وفي السنة التالية اغرى ملك الدانمرك بعض الاقطار على الثورة فجاءها الملك وكبت الثائرين واسرف في الانتقام فدانت البلاد لهُ حيناً ثم وقع شيء من الهرج لان ادكار اثلن كان قد لجأ الى مالكولم ملك اسكتلاندا وازوجهُ من اختهِ الحسناء واستعان ادكار بهِ على استرجاع ملكه ولكن الملك وليم كان للاعداء

بالمرصاد فضربهم ونكّل بهم وزحف يقصد إسكتلاندا فجاءه مُلكها يحالف له أيمان المودة والولاء

هذا هو الفتح النورماندي بجميع ظروفه واحواله الاّ ان لهُ اثرًا مجيدًا في تاريخ انكلترا فلخصهُ عما كتب بعض المؤرخين قال. انهُ اذا اراد ان يتصور انكلترا وقد فتحها النورمان تعين عليهِ ان يتصور ذلك الفتح غير مقصورٍ على الانقلاب السياسي في الحكومة ولا على خلع احد المتناظرين بخصمهِ وانما عليهِ ان يرى دخول شعبٍ على اثر وقيام مجتمعٍ فوق مجتمع قياماً مغصوبًا اودى بالمجتمع الاول بحيث لم يبقَ منهُ الاّ بقية في الصبغة الوطنية وانهُ لا يستطيع ان يتمثل وليم ملكاً مستبدًّا ولا رعيتهُ كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم انهم انكليز لانهم يكون انكلترا بل عليهِ ان يتصورهم امتين الواحدة كان وليم منها وزعيماً فيها كاثنيهما خاضعتين لوليم ورعيةً لهُ الاّ ان كلمة رعية تختلف في مؤداها عنهما فهي في احداهما تفيد معنى التابعية وفي الاخرى معنى الخضوع بل عليهِ ان يعتبر ان ثمة قطرين في دائرةٍ واحدة احدهما للنورمان وفيهِ الغنى والحرية والآخر للساكسون وفيهِ الفقر والرق ينغصهُ الاستئثار والوراثة وترى القطر الاول مملوءًا بالبيوت المشيَّدة الاركان والقلاع المحصنة . واما الثاني ففيهِ أكواخ من القش مبعثرة واعشاش خربة. تلك الدور الرحيبة يسكنها اهل السعادة والنعيم ورجال البلاط والحرب واهل الفروسية والنبالة وهذه الاكواخ الحقيرة يعمل بها اهل الكد من كل عاملٍ في الزراعة والصناعة فمن الجهة الواحدة ترفٌ واساءةٌ ومن الاخرى شقاءٌ وحسد وليس الحسد هنا ما يشعر بهِ الفقراء لاهل السعة حين لا ينالونها ولكنهُ حسد المسلوب من نعمة السالب . انتهى بتصرفٍ

الاّ ان هذا الشقاء الذي وصفهُ المؤرخ كان سببًا لعظمة الانكليز ذلك لانهم اتحدوا في ضيقهم يدًا واحدة واطرحوا اسباب الشقاق وشعروا بوحدة الوطنية حتى اذا جاءتهم نعمة الوئام وحسن الحال نهضوا كلهم امةً واحدة ليس بينهم انكلوساكسوني ولا نورماندي ولكنهم كلهم انكليز

ولقد صدق القائل ان الانكليز مدينون بحريتهم للفتح النورماندي ولا عبرة بالقول ان النظام الساكسوني كان حرًّا فانما كان كالماء الراكد فلما جاء الفتح بعث في الناس فضائل كانت خافيةً من قبل

[المقتطف] كان في هذه المقالة حواشٍ كثيرة تدلُّ على كتب التاريخ التي اعتمد الكاتب عليها فحذفناها لضيق المقام ولان هذه الكتب غير مترجمة الى العربية ليسهل الرجوع اليها